مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، (العلوم الإنسانية) ، المجلد ١٩ ، العدد (٣) ، ٢٠٠٥

القسم بالزمان في آيات القرآن (دراسة لغوية وحقيقة كونية)

Swearing by Time in the Quranic Verses: A Linguistic Study and a Universal Phenomen on Moreover.

محمد البع
قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، الجامعة الإسلامية ، غزة ، فلسطين
بريد إلكتروني : *public@mail.iugaza.edu*

تاريخ التسليم : (٢٠٠٤/٥/١٩) ، تاريخ القبول : (٢٠٠٥/٢/٢٠)

الملخص

يتناول البحث القَسم بالزمان : لغةً وتركيباً ، مبيناً أغراضه وأسماء الزمان المتعلقة بالليل والنهار ، ودلالتها الزمنية موضحاً ما تختص به جملة القسم بالزمان في القرآن الكريم ، ومسجلاً الملحوظات العلمية في اختصاص السور المكية والجزء الأخير من القرآن بهذا النوع من القسم ، وعلاقة ذلك بالحقائق الكونية المتمثلة في التساوي بين الليل والنهار من حيث: زمانهما ، وتوزيعهما على الكرة الأرضية .

Abstract

This research examines swearing by time semantically and syntactically, indicating its purposes, the temporal expressions related to night and day, and their denotations. The study also illustrates the characteristics of the clause of swearing by time in the Quranic verses. Moreover, it discusses the scientific observations of how the Makki Chapters (suras) and the last section (Juzu') of the holy Quran are distinguished wity this kind of swearing and how this is related to the different universal phenomena in the balance between night and day in terms of their times and distributions of the earth.

مقدمة

لقد تعددت في العربية أساليب التوكيد في الكلام ؛ لتقريره عند السامع ؛ وتوثيقه لدى المخاطب . والقسمُ أسلوبٌ من أساليب التوكيد الواضحة بألفاظه وأغراضه . وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب القسم ، متبعاً النهج العربي في توكيد الإخبار به ؛ لتطمئن الأنفس إليها ، وتنفر مما يخالفها . والقَسم بالزمان نوعٌ من أنواع القَسم في القرآن الكريم ؛ لأن الزمان واحدٌ من مخلوقات الله المتعددة ؛ ليثير في النفوس التفكير فيما

في مخلوقاته من روعة تدفع المتأمل إلى التفكير في خالقها مقراً بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وبديع صنعة المخلوق.وقد استعمل القَسم بالزمان كثيراً في القرآن الكريم ، ولكنه في جميع استعمالاته كان أساسياً لا تزويقاً لفظياً ؛ ولذلك كان موضوع البحث (**القسم بالزمان في آيات القرآن الكريم**) دراسة لغوية وحقيقة كونية، عرضتُ فيه إلى تعريف القَسم لغة وتركيباً مبيناً حروفه وألفاظه وأغراضه ، موضحاً ما تختص به جملة القَسم بالزمان دون غيرها.

وتناولت بعد ذلك أسماء القسم بالزمان المتعلقة بالنهار من الفجر إلى غروب الشمس ، وأسماء الزمان المتعلقة بالليل من المغرب إلى طلوع الفجر ، وبينت الدلالة الزمنية الخاصة بكل واحد منها ، والمواضع التي ورد ذكرها في القرآن الكريم محاولاً الربط بينها وبين عدد مواضعها على الكرة الأرضية .

ثم عرضت إلى الخصائص التركيبية لأسلوب القَسم بالزمان ، والغاية التي أرادها الله تعالى من المقسم به ، واختصاص السور المكية به وكذلك الجزء الأخير بهذا النوع من القَسم أكثر من غيره من أجزاء القرآن الكريم ، مدوناً كل ذلك في ملاحظات علمية .

القَسم في اللغة

هو استعانة الحالف بقوة أعظم من قوته ، تدفع المخاطب إلى تصديق الكلام ، فَقَبْلَ القَسم كان أمر الحالف إلى نفسه ، إن صَدَقَ أو كذب ، أما بعد أن حلف فقد صار أمره إلى الله ، إن حلف صادقاً غَنِم ، وإن حلف كاذباً غَرِم ، ومن هنا يثق المخاطب في الكلام المحلوف عليه.

هذا في المصالح المرسلة ، أما في الفن ، فالشاعر يحلف مبالغة في التعبير عن ذاته ؛ إيهاماً للمخاطب بأن الأمر جلل ، والخطب عظيم ، وهو في كل ذلك ، "شاعر" من الشعراء ، قال تعالى: "**والشعراء يتبعهم الغاوون أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ**"(١) أما في القرآن الكريم، فتجتمع روعة القسم مع إعجاز النظم ، وحسبك بالله تعالى مُقْسِماً على أمر(٢) .

والقسم في التركيب

هو جملة يؤتى بها لتوكيد جملة أُخرى ، وإزالة الشك عن معناها ، أو يؤتى بها؛ لتحريك النفس ، وإثارة الشعور. ويُستعمل القسم ؛ لإنشاء التوكيد في الكلام الخبري نحو : " والله ما انكرتُ فضل متفضلٍ عليّ" أو في الكلام الطلبي كقول الشاعر :

بالله قولي لنا يا نسمةَ السحرِ   من أين جئتِ بهذا النافحِ العطرِ(٣)

وترتبط الجملة المؤكدة ، والجملة المؤكَدة ارتباط جملتي فعل الشرط وجواب الشرط. والجملة

التي تلي القسم هي الجملة المؤكَدة ، وتسمى (جواب القسم) . أما الجملة المؤكِدة فهي جملة القسم ، وهي جملة إنشائية ، وبوساطة هذه الجملة يتحقق الخبر ويؤكد ، أعنى يتحقق الإخبار الوارد في الجملة التي تلي القسم ويؤكد ، وتتصف جملة جواب القسم بالآتي:

١-إنها غالباً جملة لا محل لها من الإعراب.

٢-يشترط فيها أن تكون خبرية ، ويسمى القسم في هذه الحالة قسماً خبرياً أو "غير استعطافي" غايته توكيد الجملة وإزالة الشك عن معناها .

٣-يمكن أن تكون جملة القسم إنشائية "طلبية" كما في "القسم الاستعطافي" وحينئذ تكون غاية هذه الجملة تحريك النفس وإثارة شعورها ، ولا تحتاج هذه الجملة لزيادة شيء عليها بخلاف جملة القسم الخبري . ومن أمثلة القسم الاستعطافي في قول الشاعر :

بربكَ هل ضممتَ إليك ليلى قُبيلَ الصبح أو قبلتَ فاها (٤)

ويرى بعض النحاة أن ما جاءت صورته كصورة القسم وهو غير محتمل الصدق والكذب؛ أي كان جملة إنشائية كما في البيت السابق حُمل على أنه ليس بقسم ؛ لأن القسم "، لا يتصور إلا حيث يتصور الصدق والحنث، والصدق والحنث لا يتصوران إلا فيما يتصور الصدق والكذب"(٥)كما أنه لا يتصور أن يكون الفعل المتعلق به المجرور " أقسم" ، ألا ترى أنه لا يتصوران يقال : أقسم بدينك هل ضممت إليك ليلى .... بل الفعل الذي يتعلق به المجرور : أسألك بربك هل ضممت إليك ليلى.ولعل مرد توكيد هؤلاء النحاة وأكثر البلاغيين على اعتبار ذلك قسماً هو مراعاة الوظيفة لا شكل التركيب.

ألفاظ القسم وأدواته

يختص أسلوب القسم في اللغة العربية بألفاظ معينة تشمل : الحروف والأفعال والأسماء ، وسنعرض لها بإيجاز على النحو الآتي :

أولاً : حروف القسم

للقسم أربعة حروف مشهورة ، وفائدتها توصيل الفعل القاصر - وهو فعل القسم - إلى مفعول به، ويستثنى منها إذا كان القسم بجملة اسميه كما سنرى: والحروف الأربعة هي:

١)الباء

وهي أصل حروف القسم ، وإن كانت الواو أكثر استعمالاً منها ، وتختص الباء بالقسم الاستعطافي كما سنرى ، وبجواز إظهار فعل القسم معها كقولنا : "أقسم بالله لأدافعن عن المسجد الأقصى" ، ومنها قوله تعالى : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَانهمْ لَئنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ)(٦)، وكذلك جواز عدم ذكره نحو قوله تعالى : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)(٧)(٨) . وقد استعملت الباء في القسم بالزمان في موضعين من القرآن الكريم كما سنرى.

ب) الواو

والظنُّ أن أصلها الباء ، كما ذكر بعض النحويين ؛ وذلك أنه لما كثر استعمال أقسم بالله ونحوه، وأرادوا التخفيف حذفوا الفعل أولاً ، فقالوا: "بالله ، ثم تدرجوا فأبدلوا الباء واواً ؛ لأن الواو أخف ، فقالوا "والله" ، قال تعالى : (**ق، والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم، فقال الكافرون هذا شيء عجيب**)(٩).

والواو أكثر حروف القسم استعمالاً في القسم للزمان -كما سنرى- وذلك لدخولها على كل محلوف به ، وما قيل في فواتح السور : أنها في محل جر بواو القسم المحذوف ومن أبرز صفاتها الآتي:

١-اختصاصها بالظاهر. ولا يحلف بها إلا بماله مكانة واعتبار عند المتكلم وعند السامع والمتكلم ولذلك كان أكثر دخولها على لفظ الجلالة، أو على اسم موصول كناية عنه نحو : والذي نفسي بيده، والذي بعثك بالحق.

٢-عدم جواز ظهور فعل القسم معها على الأرجح . نحو (**والقرآن الحكيم**)(١٠) ، (**والله ربنا ما كنا مشركين**)(١١)

٣-يجوز أن تنوب عنها بعض الألفاظ من نحو : هالله بمعنى والله ، وآلله ، ولم يعد لمثل هذه التراكيب وجود في لغتنا . ولم تكن شائعة من قبل.

ج) التاء

وتختص بلفظ الجلالة نحو : (**تَاللَّه تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ**)(١٢) ، وقوله تعالى: (**وَتَاللَّه لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**) (١٣). فلا تجر غيره لا ظاهرا ولا مضمراً ، وتاء القسم هذه بدل من الواو جرياً على عادة العرب الذين كانوا يفرون من الواو إلى غيرها إذا وقعت في أول المفردة، كما أبدلت في تبال وتراث ، والأصل : وبال ووراث، وربما أبدلوها همزة مثل إشاح وإفادة، وأصلها وشاح ووفادة، ولهذا عدت لفرعيتها أضعف حروف القسم. ولا يذكر معها فعل القسم كما في الباء ، ولا تجر من الأسماء الظاهرة إلا ثلاثة : الله ، الرب ، الرحمن، وإن جرت غير هذه فهو غريب شاذ (١٤) . ولذلك لم يرد بها أبداً القسم بالزمان في القرآن الكريم.

د) اللام

لم يأت بها القسم بالزمان أيضاً في آيات القرآن الكريم ، وقد انفردت عن حروف القسم بأنها تدل على التعجب مع القسم نحو : لله لا يؤخر الأجل، أي : تالله ، ومنه قول مالك بن نويرة :

للهِ عتابُ ابن ميّة إذ رَأى   إلى ثأرِنا في كفِّه يَتَقَلّدُ(١٥)

ثانياً : أفعال القسم

لقد درج العرب في التركيب القسمي على استخدام بعض الأفعال التي تتفاوت في استعمالها وهي

الأول : الفعل أقسم : وهو أشهر الأفعال وأكثرها استعمالاً في أنواع القسم المتعددة . ويكثر اقترانه بالمقسم به ، ويرد في العربية بصيغة الماضي والمضارع مقترناً بـ "لا" وغير مقترن بها ، ومنه قوله تعالى (**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا**)(١٦) ، وقد استعمل هذا الفعل في القسم بالزمان مقترناً (بلا)

في موضعين من القرآن الكريم قوله تعالى (**لا أقسم بيوم القيامة**)(١٧) ، وقوله : (**فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ**)(١٨) .

الثاني : الفعل حلف: بمعنى أقسم ، وهو كثير الورود في أساليب القسم ويرد ك " أقسم" ماضياً ، ومضارعاً ومصدراً مقترناً بالمقسم به وغير مقترن ، غير أنه لا يشبه "اقسم" بكثرة اقترانه بـ "لا" بل قد ندر اقترانه بها ، ومنه قوله تعالى : (**يَحْلِفُونَ بِاللَّه مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**)(١٩) ، ويلاحظ أن الفعل حلف وصيغه لم تستعمل في القسم بالزمان في آيات القرآن الكريم .

الثالث الفعل آلى : بمعنى أقسم وحلف ، ولم يرد في القرآن الكريم استعمال هذا الفعل في القسم بالزمان أيضاً ومما ورد قوله تعالى : (**وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ**) (٢٠) أي : لا يحلف، لأنها نزلت في حلف أبي بكر ، أن لا ينفق على مسطح بن أثاثه وقرابته الذين ذكروا عائشة(٢١)، وهناك أفعال كثيرة تؤدي معنى القسم ، ليست أساسية ولا فرعية في القسم ، ولكنها تستعمل بمعنى القسم على سبيل الاستعارة أو المجاز ؛ لأن تضمين الفعل معنى القسم ليس بقياس في العربية(٢٢) ، ونحن لا نعرض لها هنا لقلة استعمالها بصفة عامة ، ولأنها لم تستعمل في مجال القسم بالزمان في آيات القرآن.

ثالثاً : أسماء القسم

وقد استعمل العرب كثيراً منها نحو : لعمرك ، عمرك ، أيمن الله ، ويمين الله ، في ذمتي، بعزة الله ، وغيرها(٢٣) ولم يرد استعمال هذه الأسماء في أسلوب القسم في القرآن الكريم ، كما لم يُذكر أيٌّ واحد منها في تركيب القسم بالزمان في آيات القرآن .

أنواع القسم

أ) القسم الصريح أو الظاهر

وهو ما كان فيه القسم صريحاً أو ظاهراً، ويستدل عليه بحرف القسم نحو قوله تعالى: (**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ، إنكم لفي قول مختلف**)(٢٤) ، أو يستدل عليه بفعل القسم نحو: أقسم لا أنسى المعروف. أو يستدل عليه بالحرف والفعل معاً كقوله تعالى : (**وَأَقْسَمُوا بِاللَّه جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا**)(٢٥) ، أو يستدل عليه بلفظ من ألفاظ القسم اسماً كان أم مصدراً ، نحو قول امرئ القيس :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعداً ولو قطّعوا رأسي لديكِ وأوصالي(٢٦)

والقسم الصريح هو أكثر أنواع القسم وروداً في أسلوب القسم بالزمان ، في آيات القرآن كما سنرى: ومنه قوله تعالى: (**والضحى والليل إذا سجى**) (٢٧)

والقسم الصريح نوعان

الأول استعطافي : وهو ما كان جواب القسم فيه جملة إنشائية ، وتختص له الباء من بين حروف القسم كما ذكرنا سابقاً .

الثاني غير استعطافي : وهو ما كان جواب القسم فيه جملة خبرية ، وهو الكثير الشائع في العربية ، نحو : (والله لأنصرن المظلوم) ، فجملة (أنصرن المظلوم) جملة خبرية .

ب- القسم المضمر : وهو ما لم يذكر معه القسم صريحاً أو ظاهراً ، وهذا القسم نوعان هما:

الأول : ما دلت عليه اللام سواء كانت مقترنة بأداة الشرط كقوله تعالى : **(لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)** (٢٨) فاللام من "لئن" موطئة لقسم مضمر ، واللام الثانية هي لام القسم، أم كانت مقترنة بالفعل المضارع المتصل بنون التوكيد ، كقوله تعالى : **(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ)**(٢٩) .

ويقدر جمهور النحاة في المثالين السابقين وغيرهما فعلاً مناسباً من أفعال القسم أو لفظ الجلالة ، فكأن القول : أقسم لئن ، أو : والله لئن انجيتنا ، أو أقسم – والله لنبلونكم ؛ لأن اللام واقعة في جواب القسم المقدر.

والثاني : هو ما دل عليه المعنى أو ما كانت ألفاظه جارية مجرى القسم كقوله تعالى : **(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ)**(٣٠) ، بمعنى تمت كلمة ربك يمينا.

ويلاحظ أن هذين النوعين من القسم المضمر لم يُذكرا في القسم بالزمان في آيات القرآن إذ اقتصر على القسم الصريح فقط، كما بينّا .

أحكام تراكيب القسم بالزمان

أولا : ربط الجواب بالقسم

يربط جواب القسم الخبري بجملة القسم بأحرف معينة وظيفتها توصيل الفعل القاصر؛ وهو فعل القسم إلى المفعول به ، ويستثنى عنها في مواضع معينة وذلك على النحو التالي:

١-إذا كان جواب القسم فعلاً مضارعاً موجباً مقترناً بحرف التسويف ربط باللام فقط، ومنه قوله تعالى : (والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى)(٣١) ، فإن كان المضارع خالياً من "قد" و "حرف التسويف" ربط باللام ، ونون التوكيد نحو قوله تعالى : **(فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق لتركبن طبقاً عن طبق)**(٣٢)

٢ - إذا كان الجواب جملة اسمية موجبة رُبط بإن واللام المزحلقة أو المؤكدة مجتمعين كقوله تعالى:

(والفجر، وليال عشر، والشفع والوتر، والليل إذا يسر، هل في ذلك قسم لذي حجر، ألم ترَ كيف فعل ربُّك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يُخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك صوت عذاب، إن ربك لبالمرصاد)(٣٣) ، (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى)(٣٤) ، وقوله (والعصر، إن الإنسان لفي خسر)(٣٥) .

٣- إذا كان الفعل ماضياً متصرفاً موجباً اقترن باللام و"قد" معاً ، ولم يرد مثال عليه في القسم بالزمان والذي ورد مقترناً بـ "قد" بعد حذف اللام لطول الكلام كقوله تعالى: **(والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها ،والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ... قد أفلح من زكاها)**(٣٦)، ويجوز كذلك حذفهما لطول الكلام نحو قوله تعالى : **(والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود)**(٣٧).

ثانياً : اقتران القسم بلا

ومن خصائص التركيب القسمي بالزمان اقترانه بلا ، حيث يكثر اقتران "لا" بالمقسم به عامةً ، وأكثر اقترانها بلفظ الجلالة صريحاً أو كناية، نحو قوله تعالى : **(فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)**(٣٨) ، وقد ورد استعمالها مع فعل القسم في القرآن الكريم في سبعة مواضع (٣٩) ، لم تستعمل في غيرها، اثنان منها في أسلوب القسم بالزمان ، وهما قوله تعالى : **(فلا أقسم بالشفق)**(٤٠) ، و**(لا أقسم بيوم القيامة)**(٤١) ، وللعلماء في "لا" هذه المقترنة بالقسم آراء مختلفة ، فقد تزاد مؤكدة ملغاة كما سنرى فيما بعد .

ثالثاً : فعل القسم بين الحذف والذكر

يكثر الحذف في القسم لكثرة الاستعمال وطول الكلام ، والحذف خاص بجملة القسم إذا كانت جملة فعلية ، حيث يجوز حذف فعل القسم إذا كان حرف القسم "الباء"، فيجوز أن يقال: بالله لأفعلن، على تقدير أقسم أو أحلف، ويجوز إظهار الفعل، تقول: أقسم أو أحلف بالله، وقد ورد في القسم بالزمان ذكر فعل القسم مع حرف الباء كقوله تعالى: **(لا أقسم بيوم القيامة)**(٤٢) ، وقوله: **(فلا أقسم بالشفق)**(٤٣).

أما إذا كان الحرف غير الباء : كالتاء والواو - التي كان أكثر القسم بالزمان بها- فإن فعل القسم معهما يجب أن يحذف ، وقد ذكر ابن هشام في المغني أن المقسم به بغير الباء كالواو والتاء يجب أن يتعلق بفعل محذوف ، ولو صرح بالفعل لوجبت الباء(٤٤).

ويذكر المبرد أن القسم في إضمار الفعل وإظهاره يجري مجرى إضمار الفعل في المفعول به ؛ لأن أدوات القسم توصل الحلف إلى المقسم به ، فالحلف مضمر مطرحٌ لعلم السامع به ، كما كان قولك : يا عبد الله ، محذوفاً منه الفعل (٤٥) وقد شاع حذف فعل القسم في القرآن الكريم ، في أسلوب القسم بالزمان ، إذا كان حرف القسم الواو كما ذكرنا منه قوله تعالى : **(والعصر إن الإنسان لفي خسر)**(٤٦) وقوله : **(والفجر وليالٍ عشر)**(٤٧).

رابعاً : تكرير الحرف القسمي الواو

يلاحظ في أقسام القرآن الكريم عامة ومنها القسم بالزمان وأسمائه تكرير الحرف التركيبي القسمي "الواو" بصورة واضحة لا مجال فيها للمقارنة مع غيره من حروف القسم، ومنه قوله تعالى : **(والليل إذا يغشى ،والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى)**(٤٨) ، فتعد الواو الأولى في نحو هذا الكلام واو القسم ، وما بعدها من الواوات عند بعضهم للعطف لا للقسم .

قال المبرد : "ولو كانت للقسم لكان بعض هذا الكلام منقطعاً من بعض ، وكان الأول إلى آخر القسم على غير محلوف عليه ، فكان التقدير : والليل إذا يغشى ، ثم ترك هذا وابتدأ "والنهار إذا تجلى" ولكنه بمنزلة قولك : والله ثم الله لأفعلن . وإنما مثلت لك بثم؛ لأنها ليست من حروف القسم " (٤٩) ، ويرى آخرون أنها واو القسم في كل الأقسام وليست للعطف ، وأن الوحدة الموضوعية بينها قائمة - كما أشرنا سابقا - وهي تدخل على كل محلوف به ، وما قيل في فواتح السور : أنها في محل جر بواو القسم المحذوف وأبرز صفاتها الآتي؛

- اختصاصها بالظاهر : ولا يحلف بها إلا مع ماله مكانة واعتبار عند المتكلم وعند السامع والمتكلم ؛ ولذلك كان أكثر دخولها على لفظ الجلالة ، أو على اسم موصول كناية عنه نحو : والذي نفسي بيده ، والذي بعثك بالحق.
- عدم جواز ظهور فعل القسم معها على الأرجح، نحو: **(يس، والقرآن الحكيم)**(٥٠) (٥١) وقوله : **(والله ربنا ما كنا مشركين)** (٥٢) .
- يجوز أن تنوب عنها بعض الألفاظ من نحو : هالله بمعنى : والله ، وآلله ، ولم يعد لهذه التراكيب وجود في لغتنا ، إذ لم تكن شائعة من قبل.

أغراض القسم بالزمان

للقسم بالزمان أغراض متعددة (٥٣) نذكر منها ما يخص القسم بالزمان وهي :

١- القسم على التوحيد وأصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها ، وذلك من خلال لفت الأنظار إلى الكون وما يحتويه من حقائق غريبة ، وأشياء عجيبة ، وما فيه من نظام بديع محكم كقوله تعالى: **(والشمس وضحاها)**(٥٤).

٢- القسم على أن الرسول حق آتاه الله الرسالة ، وهداه إلى الصراط القويم ، وكذلك إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الذي كانت تعتقد به العرب أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع، وتضر صاحبها

وكان منه إكثار الحلف بأمر الله تعالى ، ومع ذلك لم يصب الرسول "صلى الله عليه وسلم" بسوء ما ، بل ارتفع شأنه وعلا ذكره ، فكان ذلك دليلاً على صدقه عليه الصلاة والسلام كقوله: **(فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم)**(٥٥)، **(والضحى، والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، ولسوف يعطيك ربك فترضى)**(٥٦).

٣-تمثيل الأمور الغائبة المعنوية بالأمور المشاهدة المحسوسة ، لتتمكن في النفس إيما تمكن ، وذلك كثير كقسمه بالصبح والنهار ، والشفق والليل ، وذلك ليجلو معاني الهدى و الإيمان في النفوس ، بالتأثير بالروعة الإلهية كقوله: "والليل إذا يغشى"(٥٧)، وقوله: **"فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق،والقمر إذا اتسق"**(٥٨).

٤-تحقيق المقسم عليه وتوكيده ، خاصة حينما يكون من الأمور الغائبة الخفية، فيقسم الله عليها بإثباتها ، وذلك كالقسم على البعث والحشر أو الحساب كقوله: "لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة"(٥٩) وقوله: **"والسماء ذات البروج واليوم الموعود"**(٦٠) وقوله: **"كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر"**(٦١).

٥-القسم على وقوع الجزاء وتحقق الوعد والوعيد كقوله: **"والفجر وليال عشر"**(٦٢) .

٦-القسم على حال الإنسان ، وتقلبه في النعيم ، وجحوده للمنعم ونسيانه من خلقه في أحسن الصور ، وسواه في أبدع التكوين كقوله: **"والعصر ، إن الإنسان لفي خسر"**(٦٣).

وبعد حديثنا عن القسم وأدواته وألفاظه وأنواعه وأغراضه نعرض لأسماء الزمان التي ورد القسم بها في آيات القرآن الكريم للتعرف على معانيها اللغوية والاصطلاحية المتعلقة بمدتها الزمنية، و مواضعها التي ورد القسم بها في القرآن الكريم وعدد المرات التي أقسم الله تعالى بكل واحد منها .

ونبدأ حديثنا بأسماء الزمان المتعلقة بضوء النهار مرتبة حسب أوقاتها الزمنية لمقارنتها باسم الليل واستخلاص النتائج المترتبة على ذلك .

أولاً الفجر

الفجر لغة : ضوء الصباح وهو حُمرة الشمس ، في سواد الليل ، وقد انْفَجَرَ الصبح وتَفَجَرَ و انْفَجَرَ عنه الليل ، وأفْجَرُوا : دخلوا فيه ، وأنت مفجر إلى طلوع الشمس(٦٤).

لقد أقسم الله تعالى بالفجر مرة واحدة في القرآن الكريم وسميت السورة باسمه ؛ لأنه يستهل السورة بالقسم بالزمان في قوله تعالى : **(والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر؟)**(٦٥) ، وقد بدأنا بالفجر ؛ لأنه أول ساعات اليوم ، وأقسم الله به ؛ لأن الزمن من صنعه ولعظيم شأنه عنده وهو المتصرف به وحده، والفجر هنا في الآيات في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة ، من المناسك، وأمكنة معظمة ، وهي محلها ، وذلك من شعائر الله ، المتضمنة خضوع العبد لربه ، فإن الحج والنُسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته ، وذلك ضد ما وصف به ، عاداً، وثمود ، وفرعون من العتو ، والتكبر ، والتجبر ، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم(٦٦). ومما يؤكد ذلك ما رواه ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في فضل هذه الأيام بكل أزمنتها أنه قال : **"ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر، قيل : يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء"**(٦٧)، فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به.

وأما الفجر فإن أُريد به جنس الفجر بصفة عامة كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات ، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات ، وختمه بقوله **"والليل إذا يسر"** المتضمن لآخر الصلوات ، وإن أُريد بالفجر فجر مخصوص ، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام ،وما رؤي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها . وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله ، كما ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم أنه قال : **"أفضل الأيام عند الله يوم النحر"** (٦٨) ، وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، **"إن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان"** ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة ، وذلك بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، امتثالاً وتأويلاً للقرآن .

وهكذا فقد تضمن القسم أعمال المناسك المقدسة وأزمنة الصلوات المفروضة وخاصة الفجر ، وهما المختصان بعبادة الله تعالى والخضوع له والتواضع لعظمته وبهذا قال الخليل عليه السلام **(إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين)**(٦٩) وقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم **(فصل لربك وانحر)**(٧٠). بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده ، بل ويشركون به ، ويستكبرون عن عبادته ، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد ، وثمود ، وفرعون، وأما تركيب القسم فإن الفجر هو المقسم به لعظيم قدره عند الله، تعالى، واختلف العلماء في جواب القسم، فقال بعضهم هو قوله تعالى **(إن ربك لبالمرصاد)**(٧١).

واعترض عليهم ابن قيم الجوزية ونعته بالضعف لوجهين (أحدهما طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة، والثاني قوله: **(إن ربك لبالمرصاد)** ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذراً **(إن ربك لبالمرصاد)**(٧٢)(٧٣)، والصواب عنده أن جواب القسم هو الزمان الذي تتضمنه الأقسام بعده فقال: "وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة، من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله"(٧٤).

وقد جاءت كلمة الفجر معرفة باللام؛ لأنه لا يجهله أحد ونكر الليالي العشر؛ لأنها إنما تعرف بالعلم. كما أن التنكير تعظيم لها، فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل واحد ولا يجهله. فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد، صلى الله عليهما وسلم، كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: **(هل في ذلك قسمٌ لذي حجر؟)**(٧٥) فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

ثانياً: الصبح

الصبح لغة: الفجر وأول النهار، والجمع أصباح وهو الصبيحة والصباح والإصباح والمُصْبَح، كمكرم، وأصبح دخل فيه وبمعنى صار، وصبّحَهُمْ قال لهم: عِمْ صباحاً، وأتاهم صباحاً، كصبحهم، كمنع وسقاهم صبوحاً؛ وهو ما حلب من اللبن الغداة، وأتيته ذا صباح وذا صبوح، أي: بكرة، ولا يستعمل إلا ظرفاً(٧٦) لقد أقسم الله تعالى بزمان الصبح في القرآن الكريم مرتين، الأولى قوله تعالى: **(والصبح إذا تنفس)**(٧٧) والثانية قوله تعالى: **(والصبح إذا أسفر)**(٧٨)، وجاء القسم بالصبح لعظيم قَدْره عند الله تعالى معطوفاً على أقسام قبله تشمل القسم بالزمان والمكان معاً وذلك لتأكيد المقسم عليه وتعظيم شأنه، قال تعالى: **(فلا أقسم بالخنّس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس)**(٧٩) فأقسم الله تعالى بالنجوم التي تختفي في النهار وتظهر في الليل، والتي تجري في أفلاكها، والليل إذا أقبل بظلامه الحالك أو إذا أدبر بظلامه عند بزوغ الفجر وقبيل طلوع الشمس؛ ليظهر الصبح بضيائه ويمحو ظلمة الليل وعتمته؛ ولذلك ورد ذكره بعد الليل مباشرة، وقد قال الشاعر في وصف ضياء الصبح:

حتى إذا الصبْح له تنفسا وانجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسا(٨٠)

وأما المقسم عليه فهو القرآن الكريم وصدق مبلغه وهو الرسول الأمين والمعنى أقْسَم الله تعالى بهذه الأقسام جميعها من الكواكب والأزمنة على أن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، أي: ملك شريف، حسن الخلق، بهى المنظر ألا وهو: جبريل عليه السلام، صاحب القوة والمكانة العالية، والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى، والمطاع في الملأ الأعلى، والمزكى، بالأمانة على هذه الرسالة السمحاء، وتبليغها لمحمد، صلى الله عليه وسلم، الذي نفى عنه اتهام قومه له بالجنون، وأكد رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام على صورته

الحقيقية في الأفق الأعلى للمرة الأولى ، كما يقول العلماء ، وما محمد ، صلى الله عليه وسلم، بمتهم في قوله؛ ولا بخيل فيه بل يبذله لكل الناس.

وزيادة في تأكيد معنى المقسم عليه، وتعظيم شأنه، عطف عليه بنفي أن يكون القرآن الكريم قول الشيطان الرجيم الذي لا يقدر على حمله ، ولا يريده، ولا ينبغي له، ولذلك أين تذهب عقولكم في تكذيبكم هذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقا من عند الله، عز وجل، الذي أنزله تذكرة "وموعظة" لمن أراد الهداية به دون سواه لأنه لا مشيئة لأحد من الخلق إلا وفق مشيئة الله تعالى (٨١).

وكذلك أقسم الله تعالى بزمان الصبح تعظيماً له معطوفاً على أقسام قبله في قوله تعالى : **(كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شآء منكم أن يتقدم أو يتأخر)**(٨٢) .

فقد أقسم الله تعالى بالكواكب والأزمنة التي ترتبط ببعضها البعض في تتابعها كما أراد الله لها من يوم أن خلق السموات والأرض، وبدأ القسم بكوكب القمر الذي لا يظهر إلا ليلاً ؛ ليخفف من ظلمة الليل ، ويقلل من شدة سواده ، ثم أقسم بالليل الذي يسبق ظهور القمر، ويقبل بعد غروب الشمس، ويدبر عند بزوغ الفجر قبيل شروق الشمس ، وهو زمان الصبح الذي يبدد ظلام الليل، وينتشر فيه الناس بعد صلاة الفجر ، فالصبح زمان لا يستطيع أحد عليه إلا الذي أوجده لينتفع الناس به ، وما جاء بهذه الأقسام إلا لمنزلة المقسم عليه وعظمة شأنه عند ، الله تعالى، وهي نار جهنم وذلك لقوله : **(إنها لإحدى الكبر)**(٨٣)، أي: لأنها لإحدى العظائم التي خلقها الله تعالى ، يعجز عنها غيره ، فهي نذير للخلق أجمعين ، فمن اتعظ بها واجتهد في طاعة الله طلباً للجنة والبعد عن عذاب النار فقد هُدي إلى الطريق القويم ونجي من العذاب الأليم ، ومن تأخر ولم يقبل بالنذير فقد ضل ضلالاً بعيداً وكانت النار أولى بعذابه(٨٤).

ثالثاً الضحى

وقد أقسم الله تعالى بالضحى في القرآن الكريم في موضعين : الأول: **(والشمس وضحاها)** (٨٥) والثاني قوله تعالى : **(والضحى والليل إذا سجى)**(٨٦) ، وكان القسم بالضحى ؛ لأنه من مخلوقات الله تعالى ليثير في النفوس التفكير فيما في مخلوقاته من روعة تدفع المتأمل إلى التفكير في خالقها.

وتأمل مثلاً جمال القسم في قوله تعالى : **(والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها)**(٨٧) ألا ترى هذا القسم مثيراً في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون ومنظم شؤونه هذا التنظيم المحكم الدقيق؟ أو ليست هذه الشمس التي تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحى ، وهذا القمر يتلوها إذا غابت ، وكأنه يقوم مقامها في إنارة الكون وإبهاجه ، وهذا النهار يجلي هذا الكوكب الوهاج ، ثم لا يلبث الليل أن يمحو

سناه ، وهذه السماء وقد أحكم خلقها واتسقت في عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق ، وهذه الأرض وقد انبسطت في سعة . وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة ، التي يتسرب إليها الهدى والضلال في دقة وخفاء، أليس في ذلك كله ما يبعث النفس على التفكير العميق في خالقها ، وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خلق محاطاً بهذا الإجلال إلا في مقام الحق والصدق؟(٨٨).

وقد أقسم الله تعالى بهذه الأقسام جميعها مبتدئاً بالشمس وضحاها المتعلق بها ومختتماً بالنفس وعظيم صنعته فيها ؛ لأنه هو العالم لسرها وعلانيتها والعالم بفجورها وتقواها ، وما أقسم، الله تعالى، بهذه الأشياء ؛ إلا لأنها تدل على وحدانيته ، وعلى فلاح من طهره، وخسارة من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية في غير قدر سابق وقضاء متقدم.

وقد بدأ الله القسم بالشمس ، وهي المقسم به وجاء بالضحى معطوفاً عليها وتبعها في ذلك جميع الأشياء التي أقسم بها الله تعالى ، وأما المقسم عليه والمتضمن لجواب القسم فهو قوله تعالى : **(قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)** (٨٩) ، ولما طال الكلام بين المقسم به والمقسم عليه بعدة أقسام ،حسن حذف اللام من الجواب والتي تزيد المعنى تأكيداً وأغنت كلمة (قد) عنها في تحقيق المعنى وتعظيم وحدانية الله تعالى .

وأما قسمه بالضحى في قوله تعالى : **(والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى)** (٩٠) فهو قسم بزمان الضحى وضيائه وأتبعه بالليل وظلامه لأنهما من صنعته وعظيم قدرته، وذلك للدلالة على إنعامه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإكرامه له ، وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له ، فهو قسم على صحة نبوته ، وعلى جزائه في الآخرة، وهو قسم على النبوة والمعاد، وأقسم بآيتين عظيمتين دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته ، وهما الليل والنهار ، فتأمل مطابقة هذا القسم ، وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه ، وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه، حتى قال أعداؤه : (ودع محمداً ربه) فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة ، فهذان للحس ، وهذا للعقل ، وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم، لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغيّ ، بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم ، فتأمل حسن ارتباط المقسم بالمقسم عليه، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ ، والجلالة التي على معانيها..." (٩١).

وهكذا يتبين الارتباط الجميل بين المقسم به وهو زمان الضحى والليل التالي له وجواب القسم وهو: "ما ودعك ربك وما قلى" المتضمن معنى النفي لكل ظن عند النبي من أن يكون الله تعالى قد تركه أو أبغضه في أي زمن من حياة دعوته ثم وعده بما تقر به عينه، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه

فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر وكثرة الأتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته ، وما يعطيه في موقف القيامة ، وما يعطيه في الجنة .

وأما قوله: (**ولسوف يعطيك ربك فترضى**)(٩٢) فليست هي جواب القسم كما بيّنا ، إنما دخلت اللام على سوف دون السين ، لأن سوف أشبهت الاسم ؛ لأنها على ثلاثة أحرف ، بخلاف السين فإنها على حرف واحد ، ولم تدخل النون مع اللام ههنا ، وإن كانت النون لا تكاد تنفك عن اللام في هذا النحو لمكان سوف لأن النون إنما تدخل مع اللام لتدل على أن اللام لام القسم ، لا لام الابتداء، فلما دخلت على "سوف" علم أنها لام قسم ، لا لام ابتداء ، لأن لام الابتداء لا تدخل على سوف "(٩٣)

رابعاً : النهار

النهار لغة هو : "ضياء ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، أو من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو انتشار ضوء البصر وافتراقه"(٩٤).

ولم ترد كلمة النهار في القرآن الكريم مقسماً بها أو مبتدئاً بها القسم وإنما جاء ورودها مرتين معطوفة على قسم قبلها بواو العطف التي يعطف بها دائماً في أسلوب القسم . إذ إنه من الصور الشائعة في التركيب القسمي وخاصة في القرآن الكريم من ذلك تكرير حرف "الواو" من نحو قوله تعالى : (**والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى**)(٩٥) ، فتعد الواو الأولى في نحو هذا الكلام واو قسم ، وما بعدها من الواوات للعطف لا للقسم .

قال المبرد : "ولو كانت للقسم لكان بعض هذا الكلام منقطعاً من بعض وكان الأول إلى آخر القسم على غير محلوف عليه ، فكان التقدير : والليل إذا يغشى ، ثم ترك هذا ، وابتدأ، "**والنهار إذا تجلى**" ولكنه بمنزلة قولك : والله ثم الله لأفعلن ، وإنما مثلت لك بثم؛ لأنها ليست من حروف القسم "(٩٦).

وهكذا يتبين أن المقسم به هو الليل وأن ما بعده "والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى" معطوفاً عليه ، وأما جواب القسم أو المقسم عليه قوله : " إن سعيكم لشتى" وهو سعي الإنسان في الدنيا ، وجزاؤه في العقبى، فهو ،سبحانه، يقسم بالليل في جميع أحواله، إذ هو من آياته الدالة عليه ، فأقسم به وقت غشيانه ، وأتي بصيغة المضارع ؛ لأنه يغشى شيئاً بعد شيء ، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة ولهذا قال في سورة الشمس: (**والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها**)(٩٧)، وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار وبالساعي ، وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعي ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسوّ بين الليل والنهار والذكر والأنثى ، ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال: (**فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى**)(٩٨).

خامساً : العصر

العصر لغة : اليوم والليلة والعشي إلى احمرار الشمس ، وأعصر دخل في العصر والجمع أعصاراً وعُصُوراً وأعْصُر وعُصُراً(٩٩).

وقد وردت كلمة العصر مقسماً بها في القرآن الكريم مرة واحدة وسميت السورة باسمها وهي قوله تعالى : (**والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**)(١٠٠) ، وأقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع، عز وجل، وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر و للنهار عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولْم ينتهِ العصران يومٌ وليْلةٌ　　　إذا طلبا أنْ يُدرِكا ما َتمنيًا (١٠١)

ويقال للغداة والعشي عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطلَه العصرينِ حتىَ يَملَّنى　　　ويَرضى بنصفِ الدينِ والأنفُ راغمُ

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشي ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ومنه قول الشاعر :

يروحُ بنا عمرو وقد قصرَ العصرَ　　　وفي الروحةِ الأولى الغنيمةُ والأجرُ(١٠٢)

وقيل إن المراد بالعصر هنا زمان صلاة العصر ، وقيل أيضاً : إن الله تعالى أقسم بزمان عصر النبي محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وأيًا ما كان الأمر فإن المقصود بالعصر هو الزمان ، وأقسم الله به لمكان العبرة والآية فيه.

إن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة ، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما في الضوء ، والظلام ، والحر، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون ، والسنين ، والأشهر ، والأيام والساعات وما دونها ، آية من آيات الرب تعالى ، وبرهان من براهين قدرته وحكمته(١٠٣).

وإذا كان العصر هو المقسم به ، فإن جواب القسم هو قوله تعالى : (**إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر**)(١٠٤) ، والخسر والخسران هو : النقصان وذهاب رأس المال أو الهلكة أو العقوبة أو الشر ، والمعنى : أن كلَّ إنسان في المتاجر و المساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت(١٠٥).

وجاء القسم بزمان العصر لعظمته وجاء الجواب مؤكداً بإن الناسخة ؛ لأن المقسم عليه أمر عظيم وهو حال الإنسان ، وتقلبه في النعيم ، وجحوده للمنعم ونسيانه من خلقه في أحسن الصور ، وسواه في أبدع التكوين،يقول ابن القيم في المقابلة بين جواب القسم في هذه السورة وفي سورة التين : "وتأمل حكمة القرآن لما قال : **(إن الإنسان لفي خسر)**(١٠٦) فإنه ضيق الاستثناء وخصصه ،فقال : **(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)**(١٠٧) ولما قال : **(ثم رددناه أسفل سافلين)**(١٠٨) وسع الاستثناء وعممه ، فقال : **(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)**(١٠٩) ، ولم يقل **(وتواصوا)** فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح ، وهو قدر زائد على مجرد فعله ، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح ، فصار في خسر ، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين ، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره ، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة ، وقد تكون فرضاً على الأعيان وقد تكون فرضاً على الكفاية ، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب ، والحق الذي يستحب ، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب ، والصبر الذي يستحب، فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به ، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء ، وهو سبحانه إنما قال: **(إن الإنسان لفي خسر)**(١١٠) ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لقد فرطنا في قراريط كثيرة (١١١) فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصّل ربح ذلك .

ولما قال في سورة التين : **(ثم رددناه أسفل سافلين)**(١١٢) قال : **(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)**(١١٣) فقسم الناس إلى هذين القسمين فقط ، ولما كان الإنسان له قوتان: قوة العلم وقوة العمل ، وله حالتان : حالة يأتمر فيها بأمر غيره ، وحالة يأمر فيها غيره ، استثنى سبحانه من كمّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وانقاد لأمر غيره له بذلك ، وأمر غيره به من الإنسان الذي هو في خسر ، فإن العبد له حالتان حالة كمال في نفسه ، وحالة تكميل لغيره ، وكماله وتكميله موقوف على أمرين : علم بالحق ، وصبر عليه ، فتضمنت الآية جميع مراتب الكمال الإنساني ، من العلم النافع ، والعمل الصالح ، والإحسان إلى نفسه بذلك، وإلى أخيه به ، وانقياده وقبوله لمن يأمره بذلك (١١٤).

ومما تقدم يتبين لنا أن الله تعالى "أقسم بزمان العصر وفق علمه الذي أراده به على حال الإنسان في الآخرة ، وهذه السورة على غاية اختصارها لها شأن عظيم ، حتى قال الشافعي رحمه الله : "لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم"

سادساً : الشفق

الشفق لغة : الحمرة في الأفق من الغروب إلى العشاء الآخرة أو إلى قريبها أو إلى قريب العتمة والجمع أشفاق(١١٥) ، قال الشاعر

قم يا غلام أعنى غير مرتبك   على الزمان بكأس حشوها شفق(١١٦)

وقال آخر

أحمرُ اللونِ كحمرةِ الشفقِ (١١٧)

وليس صحيحاً عند أهل اللغة ما ذكره بعضهم من أن الشفق هو النهار "قال مجاهد : الشفق النهار كله ألا تراه قال " **الليل وما وسق** " ، "وقال عكرمة : هو ما بقي من النهار ، وإنما قالا هذا لقوله بعده " **والليل وما وسق**" فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا"(١١٨) ، ورفض ابن القيم قول ابن مجاهد وقال عنه : " وهذا ضعيف جداً ، وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق ، ظن أنه النهار وهذا ليس بلازم"(١١٩) .

وكذلك ليس صحيحاً ما ذُكر عن أسد بن عمر وأبي حنيفة في إحدى الروايتين أنهما قالا إن الشفق هو البياض ؛ لأن البياض يمتد وقته بطول لبثه ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق ويؤيد ذلك ما أجمع عليه أهل اللغة والقراء والمفسرون كما ذكرنا ، ولذلك قال الشوكاني عنه "ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من الشرع"(١٢٠) .

والشفق عند أهل اللغة أيضاً هو الرقة وأصل الحرف فيه لرقة الشيء ، ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته ، ومنه الشفقة وهو الرقة ، وأشفق عليه إذا رق له ، ولعل هذا المعنى مرتبط بالمعنى الأول ؛ لأن الشمس عندما تغيب تبدأ في الاختفاء شيئاً فشيئاً وتزول بخفة ورقة وليس دفعة واحدة ، وكذلك فإن تغير لونها لا يكون دفعة واحدة وإنما يتغير لونها شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى درجة الحمرة عند الغروب قبل العتمة.

وقد أقسم الله تعالى أيضاً بالشفق مرة واحدة في القرآن الكريم ، وذلك في سورة الانشقاق وهي قوله تعالى : **(فلا أقسم بالشفق، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقاً عن طبق)**(١٢١).

ولعل زمان الشفق الذي تنتقل فيه الشمس من حال البياض إلى حال الاحمرار ويبقى ضياؤها الممتد من النهار ليبدأ بعد احمرارها عند الغروب دخول الليل ، وهو مشهد عظيم يزول فيه النهار وضياء الشمس ويدخل ظلام الليل ليبدأ ضوء القمر في التخفيف من ظلمته ،وعليه كان المقسم به وهو الشفق بدء ساعات الليل ، ولذلك كان الربط بين هذه الآيات في رسم هذه الصورة الجميلة التي تدل على عظيم الصانع وبديع صنعه.وهي صورة أقسم الله بها لتتابع دلائل قدرته فيها حيث أقسم بزمان الشفق عندما يقع ، والليل وما حوى وجمع ، والقمر إذا ظهر وارتفع ، "فالقمر آية ، واتساقه آية ، والليل آية ، وما ضمه آية ، والشفق يتضمن

إدبار النهار ، وهو آية ،وإقبال الليل، وهو آية أخرى ، فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق، فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر آية ، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية ، والليل آية وما حواه آية ، والهلال آية ، وتزايده كل ليلة آية ، واتساقه وهو امتلاؤه نوراً آية ، ثم أخذه في النقص آية ، وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله ،ولهذا شُرع عند إقبال الليل وإدبار النهار ، ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب"(١٢٢).

إذا كان القسم هنا بالشفق وهو المقسم به ، وما بعده من الليل والقمر معطوفان على الشفق، فإن جواب القسم قوله تعالى : **(لتركبن طبقاً عن طبق)**(١٢٣) ، وهو الراجح عند جمهور المفسرين ، وأجاز فيها ابن القيم أن تكون من القسم المحذوف جوابه، ولتركبن وما بعده مستأنف(١٢٤) ، وقوله "عن طبق" أي : بعد طبق ، والمعنى حالاً بعد حال ، وقد استعملت "عن" بمعنى "بعد" في كلام العرب كثيراً ، ومنه قولهم : سادوا كابراً عن كابر ، أي ، بعد كابر ، وقال امرؤ القيس :

وتَضحى فَتِيتَ المِسْكِ فوقَ فراشِها نئومُ الضُّحى لم تنتطِقْ عن تَفَضُّلِ(١٢٥)

أي : بعد تفضل .

وقد قرئ قوله تعالى : **(لتركبَنّ)** بعدة قراءات ترتبط كل واحدة منها بالمعنى المقصود بها ، فقرأ حمزة والكسائي وابن كثير وأبو عمرو لتركبن بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد ، وهو النبي، صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي العالية ومسروق وأبي وائل ومجاهد والنخعي والشعبي وسعيد بن جبير(١٢٦) ، والقول بالخطاب للنبي فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء ، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله ، هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد ، وقول مسروق والشعبي ، قالوا : والسماء طبق ، ولهذا يقال للسماوات السبع الطباق : والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة ، ومنزلة بعد منزلة ، ورتبة بعد رتبة ، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله ، والمعنى الثالث : لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله،صلى الله عليه وسلم ، من الهجرة ، والجهاد ، ونصره على عدوه ، وإدالة العدو عليه تارة ، وغناه وفقره ، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه(١٢٧).

الثانية قرأ بها الباقون وهي قوله : **(لتركبن طبقاً عن طبق)**(١٢٨) وهو خطاب للجمع أي: الناس ، وقد اختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم فقالا : لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ،صلى الله عليه وسلم، وهاتان القراءتان هما المشهورتان عند جمهور القراء(١٢٩).

الثالثة : قرأ بها عمر وهي قوله : "ليركبُن" بالياء وضم الباء.

الرابعة : قرأ بها عمر أيضاً فيما روي عنه وعن ابن عباس وهي قوله " ليركبَن" بالياء وفتح الباء ، أي : ليركبَن الإنسان وينتقل من حال إلى حال كما بينا سابقاً.

الخامسة : رويت عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرأا بكسر حرف المضارعة وهي لغة، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الباء " لتركبِن" على أنه خطاب للنفس(١٣٠).

وأما أسلوب القسم في قوله تعالى : "فلا أقسم بالشفق" فقد نص الله تعالى فيه على فعل القسم مسبوقاً بلا، وذهب جمهور المفسرين إلى أن (لا) مزيدة للتوكيد ، والمعنى : فأقسم، وقال آخرون ، إنها للنفي، وإن المنفي بها

محذوف، وهو كلام الكفار الجاحدين، قال الفراء : هي نفي ، والمعنى : ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف فقال أقسم ، وضعف هذا بأن حذف اسم لا وخبرها غير جائز ، كما قال أبو حيان وغيره(١٣١).

سابعاً : الليل

الليل لغة : "الليل والَليْلاةُ من مغرب الشمس إلى طلوع الفجر الصادق ، أوالشمس والجمع لَيالٍ وليَائِلُ ولَيْلَةَ ليْلاُءْ وتقصر طويلة شديدة ، أو هي أشد ليالي الشهر ظلمة أو ليلة ثلاثين ، وليل أليْلُ ولائل ومُليَّل وألالُوا وأَليُلوا دخلوا في الَليْل(١٣٢).

وقد أقسم الله تعالى بالليل وزمانه وما يحتويه في ثمانية مواضع من آيات القرآن الكريم ورد في سبعة مواضع مفرداً ، وفي واحد منها كان جمعاً وهو قوله تعالى : **(وليال عشر)**(١٣٣) ، وأما المفردة فأربعة استعمل معها الفعل الماضي وهي قوله : **(والليل إذا أدبر)**(١٣٤) ، **(والليل إذا عسعس)**(١٣٥) ، **(والليل وما وسق)**(١٣٦) ، **(والليل إذا سجى)**(١٣٧)، وثلاثة استعمل معها الفعل المضارع وهي قوله: **(والليل إذا يغشاها)** (١٣٨)، **(والليل إذا يغشى)** (١٣٩) ، **(والليل إذا يسر)**(١٤٠) ، وكان القسم فيها جميعاً بأداة القسم الواو مقسماً به أو معطوفاً على قسم قبله ، بل إن القرآن الكريم سمى سورة باسم الليل ؛ لأنه عظيم عند خالقه والمتصرف بزمانه هو الله وحده المسير لكل ما في الكون ، قال تعالى : **(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)**(١٤١) ، ولعل القسم بالليل مكرر في آيات القرآن الكريم ؛ لأنه معجزة في خلقه وتتابع أحواله ومن الآيات الدالة على قدرته سبحانه وتعالى .

وقد وصف ،الله تعالى، الليل في هذه المواضع بعدة صفات ، فقد وصفه بالإقبال والإدبار والمضي في قوله : **(والليل إذا أدبر)**(١٤٢) ، **(والليل إذا عسعس)** (١٤٣) ، **(والليل إذا يسر)**(١٤٤)، ووصفه بامتداد ظلامه المغطي للأرض والآفاق من حولها في قوله تعالى : **(والليل إذا يغشى)**(١٤٥) ، **(والليل إذا يغشاها)**(١٤٦) ، ووصفه أيضاً بالهدوء والسكون في قوله : **(والليل إذا سجى)**(١٤٧).

ومما يجدر ذكره أن الله تعالى يقسم بالليل ويتبعه القسم بالنهار للمطابقة بالنهار أو أحد أجزائه للمطابقة بينهما ، يقول ابن القيم : (فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله ، إذ هو من آياته الدالة عليه ، فأقسم به وقت غشيانه ، وأتي بصيغة المضارع ؛ لأنه يغشى شيئاً بعد شيء ، فأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة ، ولهذا قال في سورة الشمس **(وضحاها)"والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها"** وأقسم به وقت سريانه كما تقدم ، وأقسم به وقت إدباره ، وأقسم به إذا عسعس ، فقيل معناه أدبر ، فيكون مطابقاً لقوله: **(والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر)**(١٤٨) وقيل : معناه أقبل ، فيكون كقوله "والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى" فيكون قد أقسم بإقبال الليل والنهار ، وعلى الأول يكون القسم واقعاً على انصرام الليل ومجيء النهار عُقيبه ، وكلاهما من آيات ربوبيته.

أما جواب القسم فهو قوله : " **إن سعيكم لشتى**" ومعناه إن عملكم لمختلف : فمنه عمل للجنة ومنه عمل للنار ، وكما هو واضحٌ من الآيات الأربعة فإن الله تعالى أقسم فيها بزمان السعي وهو الليل والنهار ، وبالساعي ، وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى ، وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه سبحانه لا يسوي بين ما اختلف سعيه من الجزاء ، كما لم يسوِّ بين الليل والنهار والذكر والأنثى(١٤٩) .

وأما جواب القسم في الآيات الأخيرة التي ورد فيها اسم الليل مقسماً به ، فقد عرضنا لها سابقاً عند حديثنا عن أنواع القسم بأسماء النهار ، إذ ورد معها اسم الليل معطوفاً على ما قبله من أقسام ، وورد فيها أسماء الضحى والفجر والصبح والشمس وغيرها .

ثامناً : يوم القيامة

أما اليوم فمعروف مقداره من طلوع الشمس إلى غروبها ، والجمع أيام ، وأصله أيوام فأدغم، ولا يستعمل فيه جمع الكثرة ، ويأتي اليوم بمعنى الدهرُ، ومنه قوله يومان : يوم نعم ويوم بؤس ، ويوم أيوم، أي : شديد(١٥٠).

والقيامة هي : يوم البعث ، يقوم فيه الخلق بين يدي الحي القيوم ، والقيامة مصدر قام الخلق من قبورهم قيامة ، وقيل القيامة هي تعريب (قيمثا) وهو بالسريانية بهذا المعنى. وقيل : يوم القيامة هو يوم الجمعة ، ومنه قول كعب : أتظلم رجلاً يوم القيامة ؟ ومضت قويمة من الليل ، أي : ساعة أو قطعة ، ولم يجده أبو عبيد ، وكذلك مضى قويم من الليل، بغير هاء ، أي وقت غير محدود) (١٥١).

وقد ورد القسم بيوم القيامة في موضعين من القرآن الكريم ، الأول : قوله تعالى **(لا أقسم بيوم القيامة)**(١٥٢) ،والثاني قوله تعالى : **(والسماء ذات البروج ،واليوم الموعود)**(١٥٣) ، ولم يرد القسم بيوم القيامة في غيرهما مع أنه قد كثر ذكر يوم القيامة في القرآن الكريم وبأسماء متعددة كيوم الحق والآزفة ويوم التماد والزلزلة وغيرها .

أما قوله : **(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة)**(١٥٤) ، فهو قسم صرح فيه المولى ،سبحانه وتعالى، بفعل القسم مسبوقاً بلا ، وللعلماء في (لا) هذه المقترنة بالقسم آراء مختلفة ، فقد تزاد مؤكدة ملغاة ،كما كانت "ما" كذلك ؛ لأنها أختها في النفي كلاهما تعمل عمل ليس قال تعالى : **(لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله)**(١٥٥) ، و"لا" زائدة هنا مؤكدة والمعنى : ليعلم ، ولولا ذلك لانعكس المعنى ، وكذلك قوله : **(ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك)**(١٥٦) والمعنى: أن تسجد ، ومنه قول الشاعر :

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ وكادَ صميمُ القلبِ لا يتقطعُ(١٥٧)

وكأن المعنى المراد في قوله: لا أقسم. هو: أقسم بيوم القيامة، وقال بعضهم: "هي رد لكلامهم حيث أنكروا البعث كأنه قال: ليس الأمر كما ذكرتم: أقسم بيوم القيامة، وهذا قول الفراء وكثير من النحويين، كقول القائل: لا والله، فلا رد لكلام قد تقدمها، ومنه قول الشاعر

فلا وأبيكَ ابنةُ العامري
لا يُدعى القومُ أنْ أفر

وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك، وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر... وقرأ الحسن وابن كثير في رواية عنه والزهري وابن هرمز "لأقسم" بدون ألف على أن اللام لام الابتداء(١٥٨).

والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال عند جمهور المفسرين، وقد اعترض عليه الإمام الرازي في تفسيره بما لا يقدح في قوته ولا يفت في عضد رجحانه (١٥٩)، ومن المؤكد أن الله تعالى أقسم بيوم القيامة لتعظيمه وتفخيمه وإظهار الهيبة منه، ولله أن يقسم بما شاء من الزمان والمكان وسائر مخلوقاته في كل الأكوان.

وأما جواب القسم فهو قوله تعالى: (**بلى قادرين على أن نسوي بنانه**) (١٦٠)، فبلى حرف جواب وهو إيجاب لما بعد النفي المنسحب إليه الاستفهام، ولذلك الوقف عليها وقف حسن، ليبتدئ الكلام بعدها بقوله "قادرين" ونصبها على الحال، والحال من ضمير الفعل المقدر، والتقدير: بلى نجمعها قادرين، وذكر البنان أي: الأصابع تنبيهاً على سائر الأعضاء، والمعنى: أقسم بيوم القيامة والنفس اللوامة ليجمعن الله تعالى عظام الإنسان للبعث والحساب، وقال بعضهم: إن جواب القسم محذوف وتقديره: ليبعثن، والمعنى: أن الله سبحانه يبعث جميع أجزاء الإنسان، وإنما خص العظام؛ لأنها قالب الخلق(١٦١).

وكذلك قسمه بيوم القيامة في قوله: (**والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود**)(١٦٢)، والمقصود هنا باليوم الموعود هو يوم القيامة وجاء مقسماً به على القسم قبله "والسماء ذات البروج"، وإن قسم الله تعالى باليوم الموعود أراد به تعظيم قدره وتبيين ما يحدث به من أهوال لا يعلمها إلا هو، ولذلك جاء اليوم الموعود مقسماً به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثا، وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة، فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

وأما العلاقة بين هذه الأقسام الثلاثة فهي علاقة قائمة والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة ،وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وألوهيته ، فأقسم بالعالم العلوي ، وهي السماء وما فيها من البرج ، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، الذي هو مظهر ملكه ، وأمره ، ونهيه ، وثوابه ، وعقابه ،ومجمع أوليائه ، وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود أياً كان القول فيه وما يدل عليه من الملائكة والأنبياء والرسل والخلق أجمعين في ذلك اليوم المشهود وهو يوم القيامة (١٦٣) .

وهكذا فقد أقسم الله بيوم القيامة ، لأنه يومٌ عظيم ، ولعل قسمه بيوم القيامة ؛ الذي حقه أن يكون مقسماً به ؛ لأنه من الأمور الغيبية ، بأنه لما تضافرت الأدلة على ثبوته ، وحتمية وقوعه ، صار من الوضوح بحيث لا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ، ومن هنا صح أن يكون مقسماً به كالآيات الظاهرة مثل الشمس والقمر كما بينا سابقاً .

ويمكن القول أن الله تعالى أقسم باليوم ؛ لأنه جزء من الزمان الذي تقوم عليه حياة الكائنات التي خلقها الله تعالى ، وقد خصص القسم بيوم القيامة ؛ لأنه -كما يبدو- ينتهي فيه الليل ويصبح نهاراً دائماً ، وبما أن يوم القيامة زمان يتغير فيه الزمان مع تغير أحوال المخلوقات فقد كان القسم به واجباً لتغير أحواله وشدة أهواله والله أعلم.

ومما سبق يتبين لنا أن القسم بالزمان قد امتازت به لغتنا العربية على سائر اللغات الإنسانية ، وأنه لا يجوز لإنسان أن يقسم بالزمان ؛ لأنه لا يملك التصرف فيه وإنما هو خاص لله وحده دون سواه ، وكذلك لم يقسم الله تعالى بالزمان في آيات القرآن إلا لأنها آيات عظيمة من بديع صنعه وبديع قدرته.

وبعد عرضنا لأسماء الزمان المتعلقة بالليل والنهار وبيان دلالاتها ومواضعها في آيات القرآن الكريم وكيفية تراكيبها اللغوية يمكننا أن نخلص منها إلى النتائج الآتية :

أولاً : لقد عاشت الدعوة الإسلامية التي تعهدها القرآن الكريم طورين متميزين واضحين، ومرحلتين متعاقبتين ، وكان لكل مرحلة سماتها الخاصة وميزاتها الرئيسة بما يعين دارس القرآن الكريم على فهم المواقف والأحوال ، ويمهد للوقوف على الخصائص البيانية والأسلوبية ومزايا الأداء القرآني بوجه عام ، وهاتان المرحلتان هما المرحلة المكية والمرحلة المدنية ، والأشهر والذي عليه الأكثر ، أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أو بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار(١٦٤).

ويطول بنا الوقوف إن حاولنا ذكر طرف من شواهد هذه الأنواع جميعاً ، وقد تكفلت ببيانها كتب علوم القرآن (١٦٥) والذي يهمنا هو الآيات المكية عموماً والتي تدور حول إنشاء العقيدة في الله وفي الوحي وفي اليوم الآخر ، وحول إنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه (١٦٦) ، ويغلب على

الآيات المكية في السور القرآنية قصر الآيات والسور وإيجازها ، وحرارة تعبيرها ، وتجانسها الصوتي البارز ، وكثرة الفواصل القرآنية ، وقصرها وتجددها بما يتناسب مع الصور والمواقف المعروضة فيها ، وكذلك كثرة الأقسام الواردة فيها وتكرارها والتأكيد عليها (١٦٧).

وكما هو واضح أن السور القرآنية التي ورد فيها القسم بالزمان كلها سور مكية تمتاز بقصر آياتها وإيجازها وتعدد فواصلها القرآنية السريعة المتلاحقة مع ما يتلاءم مع الموضوعات التي تتناولها كخلق الإنسان وعقيدته وعلاقته بخالقه وهذا يحتاج إلى التأكيد على المعنى المقصود بأكثر من جملة أو عبارة، أو بالقسم ببعض الأشياء التي خلقها الله تعالى ولها شأن عظيم عنده ، ومنها : أسماء الزمان التي ما أقسم بها إلا تأكيداً على المعاني بعدها وتعظيماً لقدرها وقدر ما يتبعها من موضوعات وتعليماً للإنسان وترسيخاً للعقيدة في قلب الإنسان المسلم .

ثانياً : إن الجزء الأخير من القرآن الكريم حفل أكثر من غيره من الأجزاء بأنواع متعددة من الإقسام بالزمان والمكان والأشجار والرياح والأرواح والكواكب وغيرها ، وإن القسم بالزمان على اختلاف أسمائه جاء كله في هذا الجزء باستثناء موضعين وردا في الجزء السابق له أولهما قوله تعالى : **(والليل إذ أدبر ، والصبح إذا أسفر)** (١٦٨) وثانيهما قوله تعالى : **(لا أقسم بيوم القيامة)** (١٦٩)، ولعل كثرة الأقسام بالزمان وأسمائه في الجزء الأخير تعود إلى الموضوعات التي تتناولها السور فيه والتي تعدل ثلث القرآن عدداً ، فهي : ست وثلاثون سورة ، وكذلك جميع السور فيه مكية باستثناء ثلاث منها مدنية ، وهي : البينة والزلزلة والنصر ، وبناء عليه فقد أقسم الله تعالى بالزمان تأكيداً على أهمية المقسم عليه كثبوت الوحدانية لله ، وأن القرآن حق ، وأن محمداً ،صلى الله عليه وسلم، رسول الله بعثه بالحق ، وغيرها كأحوال الإنسان وخلقه والحساب والعقاب ويوم القيامة.

ثالثاً : الدلالة المستوحاة من التساوي بين عدد المرات التي ورد فيها لفظ الليل بزمانه الكوني ، وهي : ثمان وسبعون مرة (١٧٠) ، وعدد المرات التي ورد فيها لفظ النهار وما يشتمل عليه من أسماء متعلقة به: كالفجر والصبح والضحى والظهيرة والعصر ، وهي: ثمان وسبعون مرة أيضاً(١٧١) ، وهذه الدلالة إشارة من الله سبحانه وتعالى في كتابه على تساوي التوزيع بينهما على سطح الكرة الأرضية ، وكذلك قوة الترابط بينهما في تعاقبهما، وأنهما خلقا معاً ، ولذلك يكثر الله تعالى من ذكرهما.

لقد كشف العلم الحديث أن الليل يحيط بالأرض من كل مكان ، وأن الجزء الذي تتكون فيه حالة النهار، هو : الهواء الذي يحيط بالأرض ، ويمثل قشرة رقيقة تشبه الجلد ، وإذا دارت الأرض سلخت حالة النهار الرقيقة التي كانت متلونه بسبب انعكاسات الأشعة القادمة من الشمس على الجزيئات الموجودة في الهواء مما يسبب النهار ، فيحدث بهذا الدوران سلخ النهار من الليل والله يقول : **(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون)**(١٧٢) (١٧٣).

إن القرآن الكريم لم يأت بالدلائل ، التي تؤكد لنا أن الأرض كروية، في آية واحدة، بل جاء بها في آيات متعددة؛ وذلك لأن هذه القضية قضية كونية كبرى؛ ولأن الكتب القديمة التي أنزلها الله قبل القرآن الكريم قد حرفت بشرياً، فأوجدت تصادماً بين الدين والعلم، ولذلك يأتي القرآن الكريم ليعطينا الدليل تلو الدليل على كروية الأرض، يقول الله سبحانه وتعالى:**(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)**(١٧٤)، فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يرد على اعتقاد غير صحيح كان موجوداً عند العرب وقت نزول القرآن، ويجيء الحق ليصحح هذا الاعتقاد الخاطئ فيقول: "ولا الليل سابق النهار"، أي: أنكم تعتقدون أن النهار لا يسبق الليل، ولكن الله يقول لكم: إن الليل أيضاً لا يسبق النهار، ومعنى أن النهار لا يسبق الليل، وأن الليل لا يسبق النهار، إنهما موجودان معاً على سطح الكرة الأرضية، وحيث إنه لم يحدث تغيير في خلق الكون أو في القوانين الكونية العليا بعد أن تم الخلق، بل بقيت ثابتة تسير على نظام دقيق حتى قيام الساعة ، فلو كانت الأرض على شكل هندسي آخر مربع أو مثلث أو غير ذلك ، لكان في ساعة الخلق وجد النهار أولاً ، ولكن لا يمكن أن يوجد الليل والنهار معاً في وقت واحد على سطح الكرة الأرضية ، إلا إذا كانت الأرض كروية، فيكون نصف الكرة مضيئاً والنصف الآخر مظلماً ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد هذا المعنى ، فذكر آية أخرى تحدد معنى كروية الأرض ودورانها فقال جل جلاله: **(وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً)** (١٧٥)، ومعنى "خلفة" أن الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر ، فمثلاً في الحراسات المستمرة تأتي نوبة حراسة لتخلف نوبة سبقتها، ثم تأتي النوبة الثالثة لتخلف الثانية وهكذا ، وإذا فرضنا أن مصنعاً يعمل أربعاً وعشرين ساعة متوالية ، فإنه يكون هناك أربع ورديات تخلف كل منها الأخرى ، ولكننا لا بد أن ننتبه إلى أنه في كل هذه النظم لابد أن تكون هناك وردية هي التي بدأت ولم تخلف أحداً ، فإذا قررنا وضع الحراسة على مكان فإن الوردية الأولى التي تبدأ الحراسة لا تخلف أحداً ؛ لأنها البداية ، وإذا بدأنا العمل في المصنع فإن الوردية الأولى التي افتتحت العمل لم تخلف أحداً ؛ لأنه لم يكن هناك في المصنع عمل قبلها وهكذا في كل شيء في الدنيا يخلف بعضه بعضاً ، تكون البداية دائماً وليس هناك شيء قبلها تخلفه ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : **(وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة)**(١٧٦) وما دام الله هو الذي جعل فلا بد أن يكون ذلك قد حدث ساعة الخلق ، فأوجد الليل والنهار خلفة على الأرض ، ولكننا كما أوضحنا فإن ساعة البداية في كل شيء لا يكون فيها خلفة ، أي : لا يخلف شيئاً شيءٌ قبله، وهذه هي البدايات ، ولكن الله يقول لنا إنه في ساعة البداية كان الليل والنهار خلفة إذن فلا بد أن يكون الليل والنهار قد وجدا معاً ساعة الخلق في الأرض ، بحيث أصبح كل منهما خلفة للآخر ، فلم يأت النهار أولاً ثم خلفه الليل ، لأنه في هذه الحالة لا يكون النهار خلفة بل يكون بداية ، ولم يأت الليل أولاً ثم يخلفه النهار ؛ لأنه في هذه الحالة لن يكون الليل خلفة بل يكون بداية ولا يمكن أن يكون الليل والنهار كل منهما خلفة للآخر إلا إذا وجدا معاً.

ونحن نعلم أن الليل والنهار يتعاقبان علينا في أي بقعة من بقاع الأرض ، فلا توجد بقعة هي نهار دائم بلا ليل ولا توجد بقعة هي ليل دائم بلا نهار ، بل كل بقاع الأرض فيها ليل وفيها نهار ، ولو أن الأرض ثابتة لا تدور حول نفسها ، ووجد الليل والنهار معاً ساعة الخلق فلن يكونا خلفة ولن يخلف أحدهما الآخر ، بل يظل الوضع ثابتاً كما حدث ساعة الخلق ، وبذلك لا يكون النهار خلفة لليل ولا الليل خلفة للنهار ، ولكن لكي يأتي

الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر ، فلا بد أن يكون هناك دوران للأرض لتحدث حركة تعاقب الليل والنهار ، فثبوت الأرض منذ بداية الخلق لا يجعل الليل والنهار يتعاقبان ، ولكن حركة دوران الأرض حول نفسها هي التي ينتج عنها هذا التعاقب أو هذه الخلفة التي أخبرنا الله ،سبحانه وتعالى، بها إذن فقول الحق ،سبحانه وتعالى، : (**وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة**)(١٧٧) يحمل معنيين المعنى الأول : أنهما خُلقاً معاً ، فلم يسبق أحدهما الآخر ، وهذا إخبار لنا من الله سبحانه وتعالى بأن الأرض كروية ، والمعنى الثاني : أن الأرض تدور حول نفسها ، وبذلك يتعاقب الليل والنهار(١٧٨).

وهكذا نرى أن الصورة القرآنية "يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً"(١٧٩) تعنى أن الليل يغطي النهار ويستره ، وعند الفصل بين زمني الليل والنهار بأسمائه يظهر التساوي بينهما واضحاً جلياً .

وهذا يعادل التساوي بين عدد القسم بهما في القرآن الكريم كما سنرى ويعادل كذلك التساوي بين عدد ورودهما بصفة عامة كحقائق كونية أشار القرآن الكريم إليها :

وحسب ما تقدم يمكن صياغة المعادلة الكونية على الشكل التالي :

الزمان اليومي = النهار + الليل

ز= ن + ل

ز: الزمان اليومي ، المشتمل على الليل والنهار وقدره أربع وعشرون ساعة .

ن: النهار ، القسم المرئي والمنير.

ل: الليل ، القسم المظلم.

فلنعد إلى القرآن الكريم ، ولننظر في مجموع ورود كلمات هذه المعادلة الزمنية الكونية لقد ورد مجموع هذه المعادلة على الشكل التالي :

الليل : ٧٤ ، ليلاً : ٣ ، ليلها : ١ ، المجموع "٧٨"

النهار : ٥٣ ، نهارَ : ١ ، نهاراً : ٣

الفجر : ٦ ، الصبح : ٤ ، صبحاً : ١ ، صباح : ١ ، الإصباح : ١

ضحى : ٣ ، ضحاها : ٣ ، الظهيرة : ١ ، العصر : ١ ، المجموع (٧٨) أيضاً

ولو نظرنا إلى هذه المسألة من زاويتها العامة التي تخص الزمن الكوني بشكل عام لرأينا أن الكلمات : ليلاً (الإسراء والإنسان) لتضمنها بعض الليل ، ليلة ، ليال ، ليالي ، لا تدخل في المعادلة الكونية ، وفق هذا المنظور ، لأنها تختص بليال محددة وزمان معين وليس الزمان الكوني لليل بصفة عامة .

أما كلمة ليلها فتدخل في المعادلة الكونية ؛ لأنها تخص السماء بشكل عام .

ولو عدنا إلى المعادلة الكونية السابقة ، وأدخلنا فيها مجموع الكلمات التي تخص هذه المسألة من الزاوية نفسها لرأيناها محققة قرآنياً كما بينا سابقاً .

رابعاً : الدلالة المستوحاة من التساوي في عدد ذكرهما معرفين في القرآن الكريم والذي أشرنا إليه سابقاً ، وكذلك من التساوي في عدد المواضع التي وردت فيها كلمة الليل مقسماً بها وبين عدد المواضع التي وردت فيها الأسماء المقسم بها والدالة على الضياء والنور ، فقد أقسم الله تعالى بضوء النهار في ثمانية مواضع اشتملت على الفجر مرة والصبح مرتين والضحى مرتين والعصر مرة والنهار مرتين ، وأقسم بالليل مفرداً في ستة مواضع أيضاً ، وردت على النحو الآتي : المدثر ٣٣ ، والتكوير ١٧ ، والانشقاق : ٧١ ، والضحى:٢ ، وأقسم بها جمعاً مرة واحدة بلفظ الليالي في سورة، الفجر: ٢ ، تخصيصاً لليالٍ معينة وهي العشرة الأولى من ذي الحجة أو العشرة الأخيرة من شهر رمضان (١٨٠) .

وكذلك أقسم بالشفق الذي هو أول ساعات الليل عند غروب الشمس وبدء العتمة، كما بينا سابقاً، ليصبح عدد المواضع الدالة على ظلمة الليل ثمانية ، وأما إذا استثنينا الموضعين اللذين ورد فيهما لفظ النهار لدلالته على العموم واشتماله على الفجر والصبح والضحى و العصر ، فإنه يصبح عدد المواضع الدالة على ضوء النهار ستة ، كما أننا إذا استثنينا أيضاً موضع الجمع (ليالي) الدال على ليالٍ معينة، وليس المقصود عموم الليل وظلمته، وكذلك الموضع الذي ورد فيه لفظ الشفق لدلالته على أول الليل وآخر النهار، ولأنه يجمع بينهما، وهكذا يصبح العدد ستة ، ولعل هذا التساوي في عدد المواضع الدالة على ظلمة الليل وضوء النهار إنما هو إشارة قرآنية من الله تعالى تدل على حكمته في خلق الليل والنهار متعاقبين على مر الزمان ، ويتساويان في عدد ساعاتهما عند الذروة في الواحد والعشرين من آذار مارس والواحد والعشرين من أيلول سبتمبر من كل عام ، ولعل نظرة إلى ما قاله الجغرافيون في تتابع الليل والنهار وتباين طولهما توضح ما أشرنا إليه.

إن تتابع الليل والنهار هو النتيجة المباشرة لكروية الأرض ولدورانها حول محورها أمام الشمس مرة واحدة كل يوم ، ولكن إذا فرض وكان محور الأرض عمودياً على مستوى فلكها حول الشمس لكان طول النهار وطول الليل متساويين باستمرار على مدار السنة في كل مكان على سطحها ، ولذلك فإن ميل المحور نحو ٢٣ درجة على هذا المستوى هو المسئول عن التباين الذي نعرفه في طول الليل والنهار في كل العروض ما عدا منطقة خط الاستواء التي يتساوى فيها طولهما طوال السنة تقريباً فباستثناء هذه المنطقة نجد أن طول نهار الصيف يزيد دائماً عن طول ليله بينما يزيد طول ليل الشتاء عن طول نهاره في كل العالم.

ويزداد الفرق بينهما تدريجياً خلال الصيف كلما اقتربنا من يوم الانقلاب الصيفي ، وخلال الشتاء كلما اقتربنا من يوم الانقلاب الشتوي ، ولذلك فإن أطول نهار وأقصر ليل في السنة يكونان في ٢١ يونيو في نصف الكرة الشمالي ، وهو تاريخ الانقلاب الصيفي ، بينما يكون أقصر نهار وأطول ليل في نفس النصف في يوم ٢١ ديسمبر وهو تاريخ الانقلاب الشتوي.

ويتزايد الفرق بينهما تدريجياً كلما بعدنا عن خط الاستواء نحو القطبين ، ففي يوم الانقلاب الصيفي مثلاً يكون طول النهار عند خط الاستواء ١٢ ساعة ، ثم يزيد إلى ١٥ ساعة عند خط عرضه ٤٠ درجة شمالاً و ٢٠ ساعة عند خط عرضه ٦٣ درجة ، و٢٤ ساعة عند الدائرة القطبية ، أي : يكون هذا اليوم

كله عندها نهاراً ، ثم يتزايد عدد الأيام التي تكون كلها نهارًا حتى تصل إلى شهر كامل عند خط عرض ٦٧ درجة وأربعة أشهر عند خط عرض ٦٨ درجة، ثم ستة أشهر عند القطب الشمالي نفسه، وفي هذا الوقت يكون القطب الشمالي في أقرب وضع له إلى الشمس، ويدور هو والمنطقة المحيطة به باستمرار في ضوء الشمس ، بينما يكون القطب الجنوبي في أبعد وضع له عنها ويدور هو والمنطقة المحيطة به باستمرار في المنطقة التي لا تصلها أشعة الشمس طوال ستة الأشهر ، ويحدث عكس ذلك تماماً في فصل الشتاء.

أما في فصلي الربيع والخريف وهما فصلا الاعتدال فتكون الشمس متعامدة على خط الاستواء ، وعندئذ يكون الليل والنهار متساويين تقريباً في كل العروض ، ويكون طول كل منهما ١٢ ساعة ، ويحدث الاعتدال الربيعي عندما تصل الشمس إلى خط الاستواء أثناء هجرتها الظاهرية نحو الشمال ، ويكون ذلك في ٢١ مارس ، بينما يحدث الاعتدال الخريفي عندما تصل الشمس إلى هذا الخط أثناء هجرتها الظاهرية نحو الجنوب ، ويكون ذلك في ٢٢ أو ٢٣ سبتمبر (١٨١).

خامساً : يلاحظ أيضاً ارتباط ذكر الليل في آيات القرآن الكريم بذكر الأسماء الدالة على ضوء النهار للمقابلة بينهما ، فما أقسم الله تعالى بالليل إلا وأتبعه القسم بالنهار أو أحد أسمائه ؛ لأن الليل آية وخلقه الله لغاية ؛ ولأن النهار آية وخلقه الله لغاية ، قال تعالى : (**وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشا**)(١٨٢) .

كما أن توزيع الليل والنهار على الكرة الأرضية يرتبط الواحد منهما بالآخر ارتباطاً وثيقاً لقوله تعالى : (**يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور**)(١٨٣) وقوله تعالى : (**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون... لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**)(١٨٤) فإذا أشرقت الشمس على نصف الكرة الشمالي أضاءته ، وفي المقابل فإنها تغيب عن نصف الكرة الجنوبي ليكون ظلاماً والعكس صحيح.

وهذا التساوي في التوزيع لليل والنهار على نصفي الكرة الأرضية يدل على التساوي في عدد المواضع التي ورد فيها ذكر الليل والنهار مُقْسَماً بها كما بينا سابقاً.

سادساً : يلاحظ أن حرف القسم "الواو" هو أكثر حروف القسم استعمالاً في القسم بالزمان؛ وذلك لأن مخرج الواو يصحبه (ضم الشفتين وسد الطريق إلى الأنف برفع الحنك اللين ويتذبذب الوتران الصوتيان فالواو صوت صامت مجهور شفوي حيث إن الشفتين تنضمان عند النطق به) (١٨٥) ، ولعل شيوع حرف الواو وتكراره في أسلوب القسم دون غيره يعود إلى مخرجها ؛ وهو ضم الشفتين والجمع بينهما عند النطق به ، وهذا يدل على ضرورة الربط بين المقسم به والمقسم عليه أو بين جملة القسم وجوابها إذ لا يستغني أحدهما عن الآخر في تمام المعنى. وهذا يوضح العلاقة بين مخرج صوت الواو ودلالته على معنى الربط بين المقسم به وجوابه .

سابعاً : إن الفعل "أقسم" من أكثر الأفعال اقتراناً بالمقسم به سواء أكان ماضياً أم كان مضارعاً، ويكون مقترناً بـ "لا" وغير مقترن بها ، ولم يرد الفعل "أقسم" في أسلوب القسم بالزمان في آيات القرآن الكريم إلا في موضعين على صورة الفعل المضارع مقترناً بلا ، الأول : قوله تعالى : **(لا أقسم بيوم القيامة)**(١٨٦) ، وقوله : **(لا أقسم بالشفق)** (١٨٧).

ومما يجدر ذكره أنه يندر استعمال فعل القسم "أقسم" مع القسم بالباء إلا أنه استعمل في القرآن الكريم في سبعة مواضع كما أشرنا سابقاً.

الخاتمة

القسم بصفة عامة أسلوب من الأساليب الإنشائية في اللغة العربية وله أدواته وألفاظه وأحكامه وأغراضه.والقسم هو أسلوب تختص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات الإنسانية.القسم بالزمان أسلوب من أساليب القسم في القرآن الكريم التي انفرد بها عن الكلام الإنساني ، لأن القسم بالنهار وأسمائه والليل وأقسامه لا يجوز أن يقسم به الإنسان وإنما هو خاص بالذات الإلهية لأن الله سبحانه وتعالى هو المتصرف بالزمان وحده، وقد اختص القسم بالزمان بواو القسم دون غيرها من أدوات القسم وذلك لوجود علاقة مستوحاة بين مخرج صوت الواو ودلالته على الربط بين المقسم به وجوابه ، ولعل كثرة ورود القسم بالزمان تختص به السور المكية في القرآن الكريم التي يغلب عليها قصر الآيات وإيجازها وتجانسها الصوتي البارز وكثرة الفواصل القرآنية فيها ، وقصرها وتجددها بما يتناسب مع الصور والمواقف المعروضة فيها، وقد كان الجزء الأخير من القرآن الكريم أوفر الأجزاء القرآنية في اشتماله على أنواع متعددة من القسم بالزمان على اختلاف أسمائه باستثناء موضعين في سورتي القيامة والمدثر، وذلك لأن الجزء الأخير أغلب سوره مكية تتناسب في موضوعاتها مع القسم بالزمان، وإن التساوي بين المواضع التي ورد فيها ذكر الليل والنهار وأسمائهما بصفة عامة وكذلك التساوي في مواضع القسم بهما على وجه الخصوص ، إشارة من الله تعالى على قوة الترابط بينهما والتساوي في توزيعهما على سطح الكرة الأرضية كما بينا، وإن المقابلة في آيات القرآن الكريم بين القسم بالنهار وأسمائه من ناحية والقسم بالليل من ناحية أخرى إشارة من الله تعالى على الترابط الوثيق بينهما في تعاقبهما على مر الزمان منذ أن خلق الله السماوات والأرض وإلى قيام الساعة والله أعلم .

الحواشي

(١) الشعراء:٢٢٤.

(٢)الراوي، كاظم، أساليب القسم في اللغة العربية : ص٥٦، وعبد السلام هارون، الأساليب الانشائية في النحو العربي ص١٦٢.

(٣) لم نعثر على قائله.

(٤) قيس بن الملوح ، ديوان مجنون ليلى ، ص٢٢١.

(٥) ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي ١/٥٢٢.

(٦) النور:٥٣.

(٧) سورة ص:٨٢.

(٨) ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي ١/٥٢٤.

(٩) ق: ١-٣.

(١٠) يس-٢.

(١١) الأنعام -٢٣.

(١٢) يوسف:٨٥.

(١٣) الأنبياء:٥٧.

(١٤) المبرد، المقتضب ٢/٣٢٠ .

(١٥) مالك بن نويرة، الديوان ٥٨.

(١٦) المائدة:١٠٧.

(١٧) القيامة-١.

(١٨) الانشقاق:١٦.

(١٩) التوبة:٧٤.

(٢٠) النور:٢٢.

(٢١) الفراء، معاني القرآن ٢/٢٤٨.

(٢٢) المبرد، المقتضب ٢/٣٢٦ ، وسيبويه، الكتاب ٣/١٠٤.

(٢٣) السيوطي، الهمع ٢/٤٠.

(٢٤) الذاريات:٧-٨.

(٢٥) الأنعام:١٠٩.

(٢٦) امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، ٦١٦.

(٢٧) الضحى: ١-٢.

(٢٨) يونس: ١٠.

(٢٩) محمد: ٣١.

(٣٠) هود: ١١٩.

(٣١) الضحى : ١-٤.

(٣٢) الانشقاق: ١٦-١٩.

(٣٣) الفجر ١-١٤.

(٣٤) الليل : ١-٤.

(٣٥) العصر ١-٢.

(٣٦) الشمس : ١-٩ .

(٣٧) البروج : ١-٤.

(٣٨) النساء:٦٥.

(٣٩) التكوير ١٥-١٦ ، الواقعة ٧٥ ، البلد ١ ، الحديد ٢٩ ، القيامة ١-٢ ، الانشقاق ١٦ ، الحاقة ٣٨.

(٤٠) الانشقاق ١٦.

(٤١) القيامة : ١.

(٤٢) القيامة :١.

(٤٣) الانشقاق:١٦.

(٤٤) ابن هشام، مغني اللبيب، ٥٨٣ .

(٤٥) المبرد، المقتضب : ٢/٨١٣ .

(٤٦) العصر:١.

(٤٧) الفجر : ١-٢.

(٤٨) الليل: ١-٣.

(٤٩) المبرد، المقتضب ٢/٣٣٦-٣٣٧ ، وسيبويه، الكتاب ٣/٥٠١ .

(٥٠) يس :١-٢.

(٥١)ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي : ٢/٦٢٥ .

(٥٢) الأنعام : ٣٢.

(٥٣) د. عبد الجليل عبد الرحيم، لغة القرآن الكريم : ٣٠٣-١٣

(٥٤) الشمس : ١ .

(٥٥) التكوير:١٥-١٩.

(٥٦) الضحى: ١-٥.

(٥٧) الليل : ١ .

(٥٨) الانشقاق : ٦١ – ١٨ .

(٥٩) القيامة ١ – ٢ .

(٦٠) البروج ١ – ٢ .

(٦١) المدثر : ٣٣ - ٣٤.

(٦٢) الفجر : ١ – ٢ .

(٦٣) العصر : ١ – ٢ .

(٦٤)الفيروز أبادي، القاموس المحيط مادة "فجر". ٢/١٠٦.

(٦٥) الفجر ١-٥.

(٦٦) ابن قيم الجوزية ، التبيان في أقسام القرآن: ص٢٧ .

(٦٧) البخاري، صحيح البخاري، ١/٢٢٩، ح ٩٦٩ ، كتاب العيدين ، باب فضل العمل في أيام التشريق.

(٦٨) البيهقي، سنن البيهقي الكبرى ، ح٩٩٩٤ ، باب نحر الإبل ، وصحيح ابن حبان ، ح٢٨١١ ، باب العيدين .

(٦٩) الأنعام:١٦٢.

(٧٠) الكوثر: ٢.

(٧١) الفجر: ١٤.

(٧٢) الفجر: ٤١.

(٧٣) التبيان ٢٨.

(٧٤) التبيان ٢٨ .

(٧٥) الفجر:٥.

(٧٦)الفيروزابادي، القاموس المحيط مادة "صبح" ١٣٢/١ .

(٧٧) التكوير:١٩.

(٧٨) المدثر ٣٤.

(٧٩) التكوير: ١٦-١٩.

(٨٠)العجاج، ديوان، ٤٠١ .

(٨١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم : ٩٧٤/٤ – ٤٨٠ .

(٨٢) المدثر ٣٢-٣٧.

(٨٣) المدثر: ٥٣ .

(٨٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤٤٦/٤.

(٨٥) الشمس : ١.

(٨٦) الضحى: ١-٢.

(٨٧) ١ – ١٠ .

(٨٨)د. رمضان عبد التواب ، القسم في الأسلوب القرآني ،ص٢٨ .

(٨٩) الضحى : ٧-٨.

(٩٠) الضحى: ١-٤.

(٩١) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن ص ٧٢-٧٣ .

(٩٢) الضحى : ٤ .

(٩٣) ابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن :٢/٥١٩، ٥٢٠.

(٩٤)الفيروزآبادي، القاموس المحيط "مادة نهر" ٩٤١/٢ .

(٩٥) الليل: ١-٤.

(٩٦)المبرد، المقتضب ٢/٣٣٦-٣٣٧ .

(٩٧) الشمس : ١ – ٤ .

(٩٨) الليل : ٥ – ١٠ .

(٩٩)الفيروز، أبادي القاموس المحيط "مادة عصر" ٩٨/٢ .

(١٠٠) العصر : ١-٣.

(١٠١)الهلالي، ديوان حميد بن ثور، ٩٠ .

(١٠٢) ذكرهما القرطبي بدون نسبة الجامع لأحكام القرآن ١٢٢/٢ وذكرهما الشوكاني بدون نسبة في فتح القدير ٤٩١/٥ .

(١٠٣) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ٨٣-٨٤ .

(١٠٤) العصر : ٢ – ٣ .

(١٠٥) الشوكاني، فتح القدير ٤٩١ .

(١٠٦) العصر : ٢ .

(١٠٧) العصر : ٣ .

(١٠٨) التين : ٥ .

(١٠٩) التين : ٦ .

(١١٠) العصر : ٢ .

(١١١) البخاري، صحيح البخاري ، باب فصل أتباع الجنازة .

(١١٢) التين : ٥ .

(١١٣) التين : ٦ .

(١١٤) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ٨٥-٨٦ .

(١١٥)الفيروزآبادي، القاموس المحيط "مادة شفق"، ٣/٢٤٢.

(١١٦) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن بدون نسبه، ج١٩/١٥٥.

(١١٧) ذكره الشوكاني في فتح القدير بدون نسبة ٥/٤٠٧، والقرطبي، ١٩/١٥٥.

(١١٨) الشوكاني، فتح القدير، ٥/٤٠٧-٤٠٨

(١١٩) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ١٠٩.

(١٢٠) الشوكاني، فتح القدير، ٥/٤٠٧ .

(١٢١) الانشقاق : ١٦-١٩.

(١٢٢) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن ، ١٠٩-١١٠ .

(١٢٣) الانشقاق : ٩١

(١٢٤) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ١١١ .

(١٢٥) امرؤ القيس، الديوان، ٤٠ .

(١٢٦) الشوكاني، فتح القدير: ٥/٨٠٤ .

(١٢٧) الجوزية، ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن ١١٢ .

(١٢٨) الانشقاق ١٩.

(١٢٩) ابن مجاهد ، الحجة في القراءات السبع ، ج٦/٣٩١.

(١٣٠) الشوكاني، فتح القدير ٥/ ٤٠٨.

(١٣١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، ج٧/٣٧٥ .

(١٣٢)الفيروزآبادي، القاموس المحيط، "مادة ليل" ٤/ ٨٤ .

(١٣٣) الفجر : ٢.

(١٣٤) المدثر ٣٣.

(١٣٥) التكوير: ٧١.

(١٣٦) الانشقاق: ٧١.

(١٣٧) الضحى : ٢.

(١٣٨) الشمس : ٤.

(١٣٩) الليل ١.

(١٤٠) الفجر : ٤.

(١٤١) آل عمران : ١٩٠.

(١٤٢) المدثر : ٣٣.

(١٤٣) التكوير : ٨١.

(١٤٤) الفجر : ٤.

(١٤٥) الليل: ١.

(١٤٦) الشمس:٤.

(١٤٧) الضحى:٢.

(١٤٨) الليل : ٣٣ - ٣٤ .

(١٤٩) الجوزية، ابن قيم، التبيان في أقسام القرآن، ٥٦ .

(١٥٠) ابن منظور، لسان العرب، مادة "يوم"، ٦/٤٩٧٤-٤٩٧٥ .

(١٥١) ابن منظور، لسان العرب، مادة "قوم"، ٥/٣٧٨٧ .

(١٥٢) القيامة١.

(١٥٣) البروج : ١-٢.

(١٥٤) القيامة: ١-٢.

(١٥٥) الحديد:٢٩.

(١٥٦) الأعراف : ٢١

(١٥٧) البيت بدون نسبة، ذكره المرادي في الجنى الداني، ٣٠٢.

(١٥٨) الشوكاني، فتح القدير ٥/٣٣٥ .

(١٥٩) الرازي، التفسير الكبير، ج٣ / ٢١٤-٢١٥.

(١٦٠) القيامة: ٣.

(١٦١) الشوكاني، فتح القدير ٥/٣٣٦.

(١٦٢) البروج: ١-٣.

(١٦٣) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن / ٨٨ والشوكاني، فتح القدير ٥/٤١٠ .

(١٦٤) الزركشي، البرهان ١/١٩٢-١٩٤ .

(١٦٥) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ١/٢٠-٦٧ .

(١٦٦) د. عدنان زرزور، علوم القرآن ،١٣٥-١٤٢ .

(١٦٧) القطان، علوم القرآن ١٤٣-١٤٥ .

(١٦٨) المدثر : ٣٣-٣٤.

(١٦٩) القيامة : ١.

(١٧٠) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ٦٥٦-٦٥٧ .

(١٧١) عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، النهار ٧٢٠-٧٢١ ، الفجر ٥١٣ ، الضحى ٤١٨ ، العصر ٤٦٣، الصبح ٣٩٩.

(١٧٢) يس : ٧٣.

(١٧٣) عبد المجيد الزنداني، توحيد الخالق ، جـ١ ، ص٩٨-٩٩ .

(١٧٤) يس: ٤٠.

(١٧٥) الفرقان: ٦٢.

(١٧٦) الفرقان : ٢٦ .

(١٧٧) الفرقان : ٢٦ .

(١٧٨) الشيخ محمد متولي الشعراوي، الأدلة المادية على وجود الله ، ٨٧-٨٩ .

(١٧٩) الأعراف: ٥٤.

(١٨٠) الشوكاني، فتح القدير ٥/٤٣٢.

(١٨١) عبد العزيز طريح شرف، الجغرافية الطبيعية – أشكال سطح الأرض ٥١-٥٢ .

(١٨٢) النبأ : ١٠-١١.

(١٨٣) الحديد : ٦.

(١٨٤) يس : ٣٧-٤٠.

(١٨٥) د. كمال بشر، علم اللغة العام (الأصوات) ، ١٣٣.

(١٨٦) القيامة : ١.

(١٨٧) الانشقاق : ٦١.

المراجع

١-امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق : حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٩م ،١٤٠٩هـ.

٢-ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن ، "البيان في غريب إعراب القرآن" تحقيق: عبد الحميد طه ، الهيئة المصرية.

٣-بشر، كمال، "علم اللغة العام، الأصوات، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤-الأندلسي أبو حيّان، محمد بن يوسف "تفسير البحر المحيط" دار الكتب العلمية للنشر، بيروت، ٢٠٠١.

٥-البيهقي ، أحمد بن الحسين "سنن البيهقي الكبرى" دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.

٦-الجوزية ابن قيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر "التبيان في أقسام القرآن" صححه وعلق على هوامشه: محمد حامد الفقي، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان.

٧-الرازي، الفخر "التفسير الكبير" ط٢، دار الكتب العلمية ، طهران.

٨-الراوي، كاظم فتحي "أساليب القسم في اللغة العربية" ط١، الجامعة المستنصرية ، بغداد، ١٩٧٧م.

٩-الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله "البرهان في علوم القرآن" تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

١٠-الزنداني عبد المجيد "توحيد الخالق" دار السلام ، القاهرة ، ط١٩٨٥م.

١١-سلطان منير "بلاغة الكلمة والجملة والجمل" ط٣، دار المعارف، الإسكندرية ، جلال حي وشركاؤه ، ١٩٩٦م.

١٢-السيوطي ، جلال الدين "الإتقان في علوم القرآن" تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤-١٩٧٥.

١٣-الشعراوي محمد متولي "الأدلة المادية على وجود الله" مكتبة دار التراث الإسلامي ، ط الأخيرة ، القاهرة.

١٤-طريح عبد العزيز طريح شرف "الجغرافية الطبيعية أشكال سطح الأرض" الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط٤، سنة ١٩٨٤م.

١٥-عبد التواب د. رمضان "القسم في الأسلوب القرآني" منبر الإسلام، العدد ١٠، يوليو ١٩٨٣م.

١٦-عبد الجليل عبد الرحيم "لغة القرآن الكريم" الجامعة الأردنية، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م.

١٧-العجاج ، ديوانه، تحقيق: سعدي خناوي ، الأولى ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٧م.

١٨-ابن عصفور الإشبيلي "شرح جمل الزجاجي - الشرح الكبير" تحقيق: صاحب أبو جناح، القاهرة ، ١٩٧١م.

١٩-الفراء "معاني القرآن"، تحقيق محمد علي النجار، وأحمد يوسف نجاتي، ط الأولى ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٧٥هـ.

٢٠-القرطبي، محمد بن أحمد الخزرجي "الجامع لأحكام القرآن" ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

٢١-القطان مناع "مباحث في علوم القرآن" ط٩، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٢٢-ابن كثير، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي "تفسير القرآن العظيم" دار التراث القاهرة.

٢٣-مالك بن نويرة ، ديوانه، تحقيق ابتسام مرهون الصغار، بغداد، ١٩٦٨م.

٢٤-المرادي ابن القاسم ، بدر الدين حسن "الجنى الداني في حروف المعاني" تحقيق: فخر الدين قباوة ومحمد نعيم فاضل، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٨٣م.

٢٥-ابن مجاهد ، أحمد بن موسى بن العباسي التميمي البغدادي "الحجة في القراءات السبع" تصنيف الحسن الفارسي، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير حويماني، دار المأمون ، ١٩٩٣م - ١٤١٣هـ.

٢٦-مجنون ليلى ، ديوانه ، شرح : عدنان زكي درويش، دار صادر ، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٧-هارون عبد السلام هارون "الأساليب الإنشائية في النحو العربي" ط الخانجي، ١٩٧٩م.

٢٨-الهلالي حميد بن ثور الهلالي ، ديوانه، إشراف د. محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت ، ١٩٩٥، ١٤١٤هـ.